

اليهود في أنطاكية في زمن العهد الجديد بين الناموس والثقافة اليونانية والكرامة المسيحية

مقدمة

تعود أهمية هذا الموضوع بالنسبة إلى باحثي الكتاب المقدس إلى أن البشارة الرسولية وصلت في زمن باكر جداً إلى الجالية اليهودية الساكنة في أنطاكية وجعلت منها قدوة للشركة مع الأمم على أساس الإيمان ببسوع الناصري. كيف أتى اليهود إلى أنطاكية؟ ما كان عددهم؟ ماذا يذكر المؤرخون عن ممارساتهم الدينية، عن ترتيبتهم الاجتماعية وعن أوضاعهم الاقتصادية؟ رغم قلة المصادر والأبحاث الحديثة في هذا المجال، سنحاول الإجابة هذه الأسئلة باختصار ونحن نطلع دائماً إلى علاقتها بزمن البشارة الرسولية.

مما يجدر ذكره أن هذا المقال يقصد أن يذكر بالإشكالية القائمة حول دور اليهود في الكنيسة الأولى وأن يدعو كل من ينتمي إلى التراث الأنطاكي المسيحي أن يعي الدور الجوهرى الذي لعبه الإيمان ببسوع المسيح في تقارب الشعوب ومصالحتها تحت سيادة رب العالمين.

الشتات اليهودي في أنطاكية قبل وصول المبشرين المسيحيين

منذ تأسيس أنطاكية عاصمةً للهيلينستية في الشرق الأوسط على يد الملك سلوقس الأول نيكاتور في العام ٣٠٠ ق.م.، حُسب في صفوف سكان أنطاكية عددٌ لا بأس به من اليهود الذين كانوا بأغليبتهم جنوداً في جيش سلوقس. ومع أن البعض منهم كان يتسجل في اللوائح المدنية فيقدم ذبائح لآلهة المدينة، غير أن أكثرية اليهود الأنطاكيين كانوا يعيشون كجماعة منظمة لها رؤساؤها الدينيون والسياسيون، على نحو اليهود الذين في الاسكندرية¹.

في أيام الملك أنطيوخس الثالث، أي حوالي السنة ٢٠٠ ق.م.، خضعت اليهودية لحكم السلوقيين فانعكست الاضطرابات السياسية في فلسطين بشكل سلبي على وضع اليهود في أنطاكية وخصوصاً في أيام الملك أنطيوخس الرابع أبيفانس (١٧٥-١٦٤ ق.م.) الذي سيقس يده على الحركات التقسيمية بغية توحيد المملكة أمام قدوم خطر الرومان من الغرب وخطر الفرس من الشرق. نقرأ في ١ مك ٢٠-٢٤ كيف أنطيوخس الرابع دس الهيكل في محاولة هلنسة الحكم في اورشليم ما أدى الى الثورة المكابية المعروفة بمعاركها الدموية وبنجاحها في تطهير الهيكل في السنة ١٦٤ ق.م. بعد هذه الأحداث صارت أنطاكية عاصمة الحكم الظالم وجمعت في سجونها عدد غير قليل من المتمردين اليهود، الأمر الذي أثر على وضع اليهود الساكنين في المدينة.

بالرغم من ذلك بقيت الجالية اليهودية الأنطاكية تتمتع بامتيازاتها الدينية والسياسية كما وأنها بسبب هذه الامتيازات تعرضت لبعض الصعوبات كالأمر بمصادرة أملاكها الذي أصدره الحاكم الروماني كاسيوس في السنة ٤٣ ق.م. والذي صححه مرقس أنطونيوس عند وصوله إلى أنطاكية².

كان التبادل التجاري والثقافي والسياسي بين أنطاكية والاسكندرية متبلوراً جداً وكانت الجماعة اليهودية في كلتي المدينتين على تبادل دائم للأخبار. كما كان هناك مواصلات قوية بين اورشليم وأنطاكية كون هذه الأخيرة مركز حكام المنطقة، الأمر الذي أثر على تجمع الشعب اليهودي في جنوب المدينة وفي دافنيه، البلدة الجنوبية المجاورة لأنطاكية التي تميزت بجمالها الطبيعي والهندسي، وكانت بقرب الطريق التي تقود نحو اورشليم التي بقيت مركزاً للإيمان اليهودي إلى يوم سقوطها في سنة ٧٠ م³.

¹ راجع Downey, G., Antioch, ٧٩-١٠٧/٨٠-١٠٨ وفلافيوس يوسيفوس، الحضارات اليهودية ١٢. ١١٩ ورستم، أسعد، كنيسة، ١٦-١٨.

² راجع فلافيوس يوسيفوس، الحضارات اليهودية ١٤: ٣٢٤-٣٢٦.

³ راجع Downey, G., Antioch, ١٠٩-١١٠ والخارطة رقم ١١.

عندما وصلت المسيحية إلى أنطاكية في الأربعينيات من القرن الأول الميلاديّ كانت الامبراطورية الرومانية قد أحكمت سيطرتها على هذه المدينة وكل ما يحيط بها منذ ما يقارب المئة سنة. وقد جعل هذا الأمر من أنطاكية مدينة هليينستية نموذجية، عاصمة لمقاطعة سوريا الرومانية ومركزاً لحاكمها. وكانت أنطاكية تُعدّ، مع روما والاسكندرية، أهمّ ثلاث مدن في الإمبراطورية.

كان عدد السكان العبيد والأحرار القاطنين في أنطاكية، في حوالي القرن الأوّل الميلاديّ، يتراوح، بحسب التقديرات، بين ثلاثمائة وستمئة ألف نسمة. وكانت الجماعة اليهودية تتراوح، حسب المصادر، بين إثنتين وعشرين ألفاً و خمس وأربعين ألفاً شخصاً و كانت تتمتع بازدهار اقتصاديّ بارز.

الفكر الدينيّ اليهوديّ في أنطاكية في القرن الأول الميلادي

كان الشتات اليهودي، منذ تواجده على أرض الأمم، ينظر إلى العالم الهلينستي بانفتاح أكثر من اليهود في فلسطين وهذا بسبب احتكاكهم اليوميّ بالثقافة والحضارة الهلينستيتين. هكذا نقرأ أنّ اليهود في الشتات كانوا يذهبون إلى المسرح والمسابقات الرياضية وكانوا يبنون مجامعهم على الطراز اليوناني. وسرعان ما تعلمت الجالية اليهودية اللغة اليونانية ونسيت العبرانية والآرامية.

وإذ نجد في فلسطين يهوداً يتعاطفون مع "نمط حياة اليونانيين" (٢مك : ٤ : ١٠ . ١٣)، نرى أن التيار الفكريّ الغالب في تلك المنطقة هو الذي يؤكد خصوصية الديانة والشعب اليهوديين منذ أيام الثورة المكابية. وهذا التيار يجري بمعايير مختلفة عند الفريسيين والآسانيين والغيوريين وفي الكتابات الرؤيوية الحكمية.

أما من ناحية الأمم، فثمة من يستهزؤون بالعادات والتقاليد اليهودية وبشكل خاص بحفظ السبت ومن يعجبون بالديانة اليهودية. وقام البعض من الوثنيين، من جهة، بمواجهات قاسية جداً ضد اليهود كالتي حدثت في أنطاكية في السنة ٤٠ م⁴. وأما من جهة أخرى، فقد رأى البعض الآخر من الوثنيين في النصوص والصلوات اليهودية ملتقى للمذاهب الفلسفية المختلفة وجواباً للقضايا الحياتية الأساسية. هكذا نرى أنّ في زمن يسوع المسيح والكنيسة الأولى عدد لا بأس به من الوثنيين يحفظون أهم الفروض الدينية وكانوا يُحتضنون في الجماعة اليهودية تحت لقب خائفي الله^٥ أو كانوا يخضعون للختان ويمارسون كافة الفروض الدينية اليهودية ويشكلون صفوف الدخلاء وينتمي إليهم نيقولاوس الأنطاكي، أحد الشمامسة السبعة المذكورين في أع ٦ : ٥-٦ والذي يشهد، من جهة، للعلاقة الحميمة القائمة بين أوّسليم وأنطاكية، إذ هو يخدم في كنيسة أوّسليم قبل انتشار المسيحيين منها، ومن جهة أخرى، للفكر اللاهوتي السائد بين اليهود الأنطاكيين الذين كانوا على الأرجح يقبلون دخلاء من الأمم في جماعتهم.

لا نجد في الشتات الأنطاكيّ معلمين أو كتّاباً يهوداً على غرار فيلون الاسكندري أو المؤرخ فلافيوس يوسيفوس الفلسطينيّ، كما وأنه لا نجد هناك مؤلفات دخلت في قانون الكتاب المقدس كسفر حكمة سليمان أو الترجمة اليونانية لحكمة يشوع بن سيراخ التي تعود بأجمعها إلى مدينة الإسكندرية. وذلك، على الأرجح، لأنّ أنطاكية لم تكن قبل وصول المسيحية إليها مركزاً فكرياً مهماً كلاسكندرية وأثينا وطرسوس، بل كان دورها الأساسي في المجالي السياسي والعسكري .

وفيما يخصّ المدارس الفكرية الفلسطينية التي، بلا ريب، كان لها أثر على اليهود في أنطاكية، لا بد أن نتوقف قليلاً عند تعاليم المعلمين الكبارين هيبال وشماي اللذين علما في أوّسليم في أيام الملك هيرودوس (٣٧-٤ ق.م). فقد أسس هذان المعلمان المدرسة الثنائية التي أمّنت استمرارية الديانة اليهودية بعد سقوط الهيكل (٧٠ م). بالرغم من القاعدة العقائدية المشتركة بينهما، كان شماي وهيبال يختلفان في أسس تفسير التوراة. فكان هيبال، الذي درس في بابل وعلم في أوّسليم، يتميز بقراءته العقلانية والإنسانية للناموس. وكان الانفتاح والنقاش المنطقي ركيزة أقواله خاصة لأنّ بعض الأمور التشريعية كانت تبقى على مستوى النظريات بالنسبة إلى اليهود في الشتات بسبب تواجدهم على مسافات بعيدة من الهيكل. أما شماي، فعاش في فلسطين منذ صباه وكان متشدداً في طريقتة للتفسير الحرفية وفي فروضه الدينية المبنية على

⁴ راجع Hengel, M. / Schwemer A.M., **Paul** ١٨٤.

⁵ راجع أع ١٠ : ٢٢ . ٢٣ : ٤٥٠ : ١٦ : ١٤ : ١٧ : ٤

التقليد الشريف⁶. مع أن للمدرستين تأثيراً على اليهود الأنطاكيين، غير أن مدرسة هيلال كانت تلقى تقبلاً أكبر من قبل المؤمنين. علاوة على ذلك يُذكر أن بولس الرسول تعلم التوراة على يد المعلم غملائيل الفريسي الذي كان تلميذاً لهيلال ويشهد العهد الجديد لاستعداد غملائيل للاستماع إلى بشارة الرسل (أع ٥ : ٣٤-٣٩). ولا شك أن خلفية بولس اللاهوتية كان لها أثر كبير على قبول اليهود الأنطاكيين لهذه البشارة.

الكرازة المسيحية في المجمع اليهودية في أنطاكية

هناك سفران مختلفان من العهد الجديد، أحدهما رسالة من القديس بولس والآخر رواية من لوقا الإنجيلي، يتناولان موضوع وصول الكرازة المسيحية إلى أنطاكية: الرسالة إلى غلاطية وسفر أعمال الرسل.

يروى القديس لوقا في القسم الثاني من كتابه (أع ٨ : ٥ - ١٢ : ٢٥) مرحلة أساسية في انتشار البشارة الرسولية وهي النزول من أورشليم الغاضبة والمضطهدة (أع ٧ : ٥٤ ؛ ٨ : ٣) إلى حيثما يوجد من يرغب الاستماع إلى الكلمة. يواصل لوقا في أع ١١ : ١٩-٢٠ سرده الروائي الذي أوقفه في أع ٨ : ٤ ليعرض بشكل برنامج نموذجي انتقال الكلمة الإلهية من أورشليم مروراً بالسامرة أولاً، ثم بخائفي الله بين الأمم وباليهود في الشتات ثانياً ووصولاً أخيراً إلى كل نفس في المسكونة أي إلى كل الوثنيين. هكذا رأى لوقا مراحل التبشير وهذا ما يعرضه نظرياً وعملياً في إخباره لأعمال فيلبس مع السامريين وبطرس مع القائد كرنيليوس وبولس مع اليهود في دمشق إلى أن يتوقف في أنطاكية ليجعل منها نقطة الانطلاق للتبشير إلى الأمم. وهنا لعب اليهود الأنطاكيون دوراً رئيسياً.

في بدء التبشير في أنطاكية، أي في أواخر الثلاثينات أم أوائل الأربعينات من القرن الأول، كانت الجماعة المسيحية في تلك المدينة تتألف من يهود ومن وثنيين قبلوا الكرازة. وعلى ما يبدو كانت جماعة أنطاكية أولى الجماعات المختلطة بين يهود وأمم. وكان هذا الأمر لافت للنظر إلى درجة أن أورشليم، أي منبع الشهادة الرسولية آنذاك، أرسلت برنابا لكي يراقب الوضع في أنطاكية (أع ١١ : ٢٢). ويشدد لوقا على ارتضاء الله بخصوصية هذه الجماعة الجديدة (أع ١١ : ٢١ : ٢٤). كما يشير إلى ضرورة مراعاتها من بولس وبرنابا لتأمين استمراريتها (أع ٨ : ٢٥-٢٦) لأنه، كما سبق وأشرنا، مواقف اليهود إزاء الأمم ومواقف الأمم إزاء اليهود كانت تتراوح بين الإعجاب والعداوة.

نرى أن بولس الرسول الطرسوسي، الذي تعلم في مدرسة هيلال ويمثل الشتات اليهودي المتهلن، أخذ على عاتقه، بعد طريقه إلى دمشق، التبشير بقيامة المسيح انطلاقاً من أنطاكية إلى كل المسكونة وكان يوجه كلامه أولاً إلى اليهود في المدينة، ثم إلى الوثنيين⁷. آزره في هذا العمل برنابا القبرصي الذي كان يهودياً مهتلماً من الشتات أيضاً، ولكنه اختلف مع بولس في فترة لاحقة (أع ١٥ : ٣٦-٤٠) وترك لبولس ورفاقه الجدد المسؤولية المسلّمة في مجمع أورشليم لتبشير الأمم (غل ٢ : ٩).

نتوقف عند ترك برنابا لبولس الرسول حتى نعود زمنياً إلى ما قبل مجمع أورشليم ونتكلم عن تأثير فئة اليهود المتشددين الأورشليمية على المسيحيين في القدس وفي أنطاكية المذكور في أع ١٥ : ١-٢ وفي غل ٢ : ٤-٥. هؤلاء الإخوة الكذبة، كما يسميهم بولس في غل ٢ : ٤، كانوا يطلبون من كل مؤمن وثني أن يحفظ الفروض الدينية اليهودية أي أن يتمسك بحرفية الناموس. وكان تأثير هذه الفئة كبير إلى حدّ، أن بطرس، أحد "المعتبرين أعمدة" الكنيسة، ناقض نفسه في فترة لاحقة ونفى مقررات مجمع أورشليم عندما امتنع عن الأكل مع المسيحيين من أصل وثني خوفاً من المسيحيين القادمين من عند يعقوب، أي من المتزمتين في أورشليم (غل ٢ : ١١-١٢).

تكررت هذه المعركة مرات عديدة في أمكنة أخرى⁸ ولكنها حدثت للمرة الأولى في أنطاكية وكان تدخل بولس الرسول فيها وفي المجمع الأورشليمي المقياس الذي على أساسه واصلت الكنيسة التبشير إلى كل البشر دون تحميل تقاليد الشعب اليهودي القديم لأحد، بل بإعطاء النعمة الإلهية كما وردت في الأسفار المقدسة اليهودية وكما وزّعها الروح القدس على ضوء تعاليم يسوع المسيح الناصري وأعماله. فهم بولس الرسول أنه بعد صلب، وموت، وقيامته وصعود المسيح حسب الكتب، يعلن الله نفسه في الإيمان في إنجيل ابنه الحبيب الذي يعطي بنعمة

⁶ راجع Foot Moore, George, **Judaism**, ٧٢-٨٢.

⁷ راجع: أع ١٣ : ٤٤-٤٩ ؛ ١٧ : ١-٩.

⁸ انظر كول ٢ : ٨-١٦ ؛ تيطس ١ : ١٠-١٦ ؛ غل ٥ : ١٢-١.

الروح القدس كما يعلمها لوقا في روايته للعنصرة (أع ٢ : ١-٤٧). جعل بولس الرسول ولوقا الإنجيلي من أنطاكية، العاصمة العالمية في الشرق الأوسط القديم، آيةً في الكتاب المقدس تشير إلى اتحاد الجنس البشري واتفاه على عبادة الإله الحقيقي كما قال الأنبياء بإيمان ورجاء، على سبيل المثال في إش ٤٩ : ٦ : "قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب ورداً محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض."⁹

لذلك صار يشار إلى هذه الجماعة الأخروية النموذجية الأولى كالجماعة "المسيحية" (أع ١١ : ٢٦)، أي بمصطلح لا يدل إلى الانتماء إلى شعب ما أو إلى إثنية معينة، إنما يدل على تحقيق الرجاء الوارد في الأسفار المقدسة لبدء تأسيس ملك الله على كل البشر.¹⁰

إضافة إلى ما دونه القديس لوقا والرسول بولس عن قبول يهود أنطاكية بالكرامة المسيحية، لا تذكر المصادر الأخرى القليلة شيئاً بارزاً عن هذه الجماعة في القرن الأول المسيحي، إلا أن في السنة ٤٠/٣٩، كما ذكر المؤرخ الأنطاكي يوحنا ملامس في القرن السادس، قامت في أنطاكية اضطرابات من حزب يوناني على اليهود وقتلوا عدداً منهم وحرقوا مجامعهم. يؤكد النقاد أن هذا المصدر غامض في سرده لأنه يدمج هذا الاضطهاد المحلي على اليهود بأحداث قديمة من أيام الثورة المكابية. ولكن تاريخية اضطهاد اليهود في أنطاكية شبه أكيدة لأن أحداث كهذه صارت في الاسكندرية وفي فلسطين أثناء حكم الإمبراطور كاليغولا (٣٧-٤١ م).¹¹ ومع أن تبشير أنطاكية، على الأرجح، أتى بعد هذه الأيام بقليل، لا يربط العهد الجديد تكوين الجماعة المسيحية الأنطاكية بهذه الحادثة الدالة إلى الصعوبات التي واجهها بولس وبرنابا في تعليمهما الأخوة والتفاهم في مجموعة بشرية جديدة تتألف من يهود ويونان على حد سواء.

خاتمة

قد تبلور لنا أن يهود مدينة أنطاكية في القرن الأول الميلادي قبلوا البشارة المسيحية ضمن صراعات حول هويتهم الحقيقية وعلاقتهم بالوثنيين في داخل جماعتهم وخارجها. لم يكن انتقالهم من التقاليد الشعبية القديمة، أي من هويتهم القديمة إلى الحياة في المسيح الجديدة أمراً سهلاً عليهم ولا على الوثنيين القابلين بالكلام الرسولي، ولكن الكلمة الإلهية تثبتت في هذه الجماعة الجديدة المنفتحة على كل البشر، وبقوة الروح القدس أدوا شهادةً بنفس واحدة للإيمان بيسوع المسيح أمام كل المسكونة.

مراجع

- رستم، أسد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى. الجزء الأول ٣٤-٦٣٤ م، بيروت، ١٩٨٨.
- كانيفيه، بيار، الخلفية الحضارية في إطار حضارات المتوسط: اليهودية، واليونانية، والرومانية، والآسيوية، إلخ، في: بدر / سليم / أبو نهر (محررون)، المسيحية. عبر تاريخها في المشرق، بيروت، ٢٠٠١، ص ٣٩-٥٧.
- Downey, G., **A History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest**, Princeton University Press, 1961.
- Foot Moore, G., **Judaism**. In the First Centuries of the Christian Era, Vol. I, Cambridge, 1962.
- Hengel, M. / Schwemer, A.M., **Paul between Damascus and Antioch**. The Unknown Years, London, 1997.
- Löning, K., Der Stephanuskreis und seine Mission, in: Becker, J. (Ed.), **Die Anfänge des Christentums**. Alte Welt und neue Hoffnung, Stuttgart et all., 1987, 80-101.
- Lohse, E., **Umwelt des Neuen Testaments** (Grundrisse zum Neuen Testament 1), Göttingen, 1980.
- Taylor, J., Why Were the Disciples First Called "Christians" at Antioch? (Acts 11,26). In: **Revue Biblique** 101 (1994) 75 - 94.
- Tarazi, P.N., **Galatians**. A Commentary, Crestwood (New York), 1994.

⁹ راجع أيضاً نبوة عاموس حول إعادة بناء مظلة داود مع الأمم في عا ٩ : ١١-١٢ ووعده الله لإبراهيم في تك ١٢ : ١٢ : ٣-١ وانسكاب الروح القدس على كل بشر في يوثيل ٣ : ١-٥.

¹⁰ لتفسير أخرى حول هذه التسمية راجع Taylor, J., **Disciples**, ٧٥-٩٤.

¹¹ راجع Hengel, M. / Schwemer A.M., **Paul**, ١٨٣-١٨٦.